

الأدلة على فضل قيام الليل

فأحب -في هذه الأهمية المباركة- أن أذكر شيئا من الأدلة على فضل قيام الليل، ومعناه، وكذلك -أيضا- على كفيته. قيام الليل يراد به: التهجد الذي أمر الله به نبيه -صلى الله عليه وسلم-؛ فقال تعالى: { وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ تَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا } هكذا { وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ } ؛ أي: تهجد بالقرآن الذي أنزله الله تعالى عليك. يقول تعالى: { فَتَهَجَّدْ بِهِ } ؛ أي: بهذا القرآن. أخبر بأنه ينزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين، وأن المصلين مأمورون بأن يتهددوا بهذا القرآن؛ فالتهجد: هو الصلاة في الليل. وقال الله تعالى في صفة عباد الرحمن: { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } إلى قوله: { وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا } { يَبِيتُونَ } ؛ يعني: يقطعون الليل. يقطعون ليهم في هذا العمل { سُجَّدًا وَقِيَامًا } اقتصر على السجود؛ لأنه أفضل أركان الصلاة، ثم على القيام؛ لأنه أطولها. والسجود فيه: الدعاء، والذكر. والقيام فيه: قراءة القرآن، وفيه التأمين على قراءة الفاتحة. هكذا مدحهم أنهم { يَبِيتُونَ } ؛ يعني: ليهم كله في هذا التهجد. يبيتون { سُجَّدًا وَقِيَامًا } . ثم ذكر فضلهم، وذكر جزاءهم، فقال في آخر الآيات: { أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْعُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا } هذا جزاؤهم { وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً } العرفة: جنس الغرف -يعني- الغرف المبنية في الجنة { عَرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا عَرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ } جعلها الله تعالى مساكن لعباد الرحمن، وجعل من أعمالهم هذا القيام الذي هو أنهم { يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا } . وهكذا -أيضا- وصفوا في آية أخرى بقوله تعالى: { إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَاللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ } { قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ } الهجوع: هو النوم -يعني- لا ينامون إلا قليلا، لا ينامون في الليل إلا جزءا يسيرا بقية الليل، ماذا يفعلون؟ يصلون، ويتهددون، ويركعون ويسجدون، وتبذلون بهذه الصلاة التي يحبها الله تعالى. وإذا كان في آخر الليل جلسوا يستغفرون -أي- يستغفرون ربهم، يحسون بأنهم لم يقوموا بما يلزمهم، كأنهم مذنبون في ليهم؛ فيختمون ليهم بالاستغفار كما أمروا بذلك، أو كما مدحوا بذلك في آية أخرى؛ ففي قول الله تعالى: { الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسَّحَرِ } ؛ يعني: أنهم في آخر الليل يستغفرون. كيف ذلك مع أنهم طوال ليهم وهم يصلون؟ إذا جاء في آخر الليل يقولون: ربنا اغفر لنا.. ربنا اغفر لنا.. ربنا اغفر لنا. نستغفرك وتتوب إليك من تقصيرنا ومن إساءتنا ومن نقصنا. هكذا كانت حالتهم؛ ليهم في تهجد، وآخر ليهم في استغفار. هذا -بلا شك- مدح لمثل هؤلاء. كذلك أيضا ورد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر أفضل الأعمال فقال: { الصدقة تطفى الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل، وقرأ قول الله تعالى: { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } { جزاؤهم على أعمالهم هذا الجزاء الأوفى { فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ } لا يعلم أحد ما جزاؤهم عند الله تعالى؛ حيث أخفى جزاءهم فلا يعلمونه إلا بعدما يشاهدونه { مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } . من عملهم: أنهم إذا تتلى عليهم آيات ربهم يخرون عليها. يخرون: يسجدون { حَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ } . ثم ذكر أنهم { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ } -أي- ما تطمئن على الفرش، يتقبلون من جنب إلى جنب، ثم مع ذلك يقومون إلى الصلاة، لا يهنؤهم النوم. ذكر عن كثير منهم أنه كلما اضطجع وجلس على فراشه ربع ساعة أو نصف ساعة وهو يتململ قام وكبر وصلى، ثم إذا سئم جاء واضطجع ولا يهنأه النوم؛ حتى يقوم مرة أخرى فيصلي. هكذا { تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ } -أي- تمل من المضجع ولا تريده؛ ولو كان فراشا وطيبا؛ ولو كان فراشا لذيذا، وما ذاك إلا أنهم يحسون بأن الصلاة التي يقومون إليها ويصلونها أنها لذتهم؛ فلذلك لا يهنأهم النوم. كذلك أيضا ورد في الأحاديث أدلة كثيرة تفيد الحث على الصلاة في الليل، والتهجد، وذكر حالة المتهجدين، زيادة على ما ذكر الله تعالى في مثل هذه الآيات الكريمة. ورد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أول ما قدم المدينة سمعه عبد الله بن سلام أول ما سمع منه أنه قال: { أيها الناس: أفضوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام.. تدخلوا الجنة بسلام } يعني: أن صلاتك إذا هجع الناس حولك وأخذوا مضاجعهم، وقمت تصلي فإن ذلك من أشرف الأعمال؛ حيث إنك انفردت بهذا العمل دون غيرك ممن حولك { صلوا بالليل والناس نيام } . وكذلك ورد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: { من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين } وهذا خير كثير، مجرد أنك تقوم الليل؛ ولو لم تقرأ إلا عشر آيات، عشر آيات فقط من القرآن في ليلتك، وفي صلاتك لا تكتب من الغافلين؛ فإن الغافلين.. هم الذين حرموا من فضل الله تعالى، وحرموا من أداء هذه العبادة. كذلك أيضا ورد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: { رحم الله رجلا قام من الليل، وأيقظ امرأته؛ فإن أبت نضح في وجهها الماء. رحم الله امرأة قامت من الليل، وأيقظت زوجها؛ فإن أبى نضحت في وجه الماء } -يعني- من باب التنشيط، يعني: أنه قد يكون متاقلا في النوم، فإذا صب على وجهه الماء؛ فإنه يزول عنه النعاس، ويزول عنه الكسل؛ ويقوم نشيطا -بإذن الله تعالى-. هذا من فضل الله.. أنه يستحق الرحمة إذا أقام امرأته، أو أقامت زوجها. وورد -أيضا- في حديث آخر أنه -صلى الله عليه وسلم- قال: { إذا قام الرجل من الليل، وأيقظ امرأته، فصليا، كتبا من القانتين والقانتات } -أي- كتب الله تعالى لهم هذا الأجر؛ وذلك لأنهما يتعاونان على الخير، يساعد الرجل امرأته، فيقوم وتقوم معه، وكل منهما يصلي؛ فيكونان بذلك من القانتين الذين مدحهم الله في قوله تعالى: { وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ } إلى قوله: { أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا } . فنقول: لا شك أن هذه الأدلة الواضحة تفيد أن قيام الليل والصلاة فيه من أفضل القربات، وأشرف الأعمال.